مـــجـــلـــة دراســـات بيت الـــمـــقـــدس، 2020، 20(3): 487–504
DOI: 10.31456/beytulmakdis.810789

الحياة الدينية في مدينة ماردين التُّركية: من أُرتُق بن أكْسب إلى عهد صلاح الدين الأيوبي (484–589هـ/1091–1194م)

ملخص: تم التعرِّيف في هذا البحث بمدينة ماردين وبأبرز رجالات الدّولة الأُرتُقية وأنشطتهم الدينية والسياسية ومواقفهم من الصليبيين. وتمّ التركيز على الحياة الدينية للنصارى مُبيِّنا أبرز طوائفهم، ورجالاتهم، وأماكن عبادتهم ومنزلتهم عند الأُرتُقية. كان المذهب السني الأشعري والماتريدي هو السائد في ماردين وماجاورها وقد تربّى السلطان صلاح الدين الأيوبي على العقيدة الأشعرية وصار يُحفِّظها صغار أولاده. لم تكن ماردين بعيدة عن التأثير الباطني الإسماعيلي بحكم وجود الباطنية في إيران في بلاد فارس والشيعة الحمدانية في حلب، ولكن لم يكن لهم التأثير الكبير على الحياة الدينية. كان للأراتقة دور كبير في الوقوف ضد الصليبيين لكن لم يكن الأمر كافيا لردعهم، وهذا ما يُفسِّر لنا بسط السلطان صلاح الدين الأيوبي نفوذه على ماردين وما جاورها لتوحيد هذه المناطق للانطلاق نحو تحرير بيت المقدس.

الكلمات المفتاحية: ماردين، النصارى، الحياة الدينية، الأُرتُقية، صلاح الدين الأيوبي.

Religious Life in Turkish Mardin, from Artuq Bey to the reign of Salah al-Din (484-589 AH/ 1091-1194 CE)

ABSTRACT: *This paper introduces the city of Mardin and the most influential leaders of the Artuqid dynasty, their religious and political activities, as well as their stance against the Crusaders. The paper focuses on the Christian religious life, specifically Christianity, showing their most distinguished Christian sects, leaders, places of worship, and their status among the Artuqids. As for the Muslims, the Matruridi Ash'ari Sunni doctrine was the prevailing doctrine in Mardin and the area around it. Salah al-Din himself was brought up by the Ash'ari doctrine which he taught to his young sons. Mardin was not far from the Ismaili Batiniyya influence because of their presence in Iran and Persia, and also the Hamdanid Shia of Aleppo, but they did not have a great influence on the religious life in Mardin. The Artuqids had a great role in facing the Crusaders, but this was not enough to deter them, and this explains why Salah al-Din extended his influence on Mardin and its environs to unify these areas towards the liberation of Bayt al-Maqdis.*

KEYWORDS: *Mardin, Christians, Religious life, Artuqids, Salah al-Din.*

* أستاذ المنطق والإلهيات، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة قطر، الدوحة/ قطر، Khattaf72@gmail.com

مقدّمة

يقوم البحث على ضبط الجوانب الدِّينية خلال قرنٍ من الزمن من عهد أرتق بن أكسب مؤسس الدولة الأُرتُقية إلى عهد صلاح الدين الأيوبي مؤسس الدولة الأيوبية. من المعلوم اهتمام الأُرتُقية بالجوانب الدينية والعلمية، كما كان هناك اهتمام واضح من الدَّولة الأُرتُقية بالدفاع عن بيت المقدس وهذا هو الخيط النَّاظم بينهم وبين السلطان صلاح الدين الذي حارب الصليبيين واهتمَّ بالمدارس العلمية، وقامت دولته في ظلِّ الدولة الأُرتُقية. وقد كانت مدينة ماردين مركزا من مراكز الدَّولة الأُرتُقية، عُرفت أكثر من غيرها بالتنوع الدِّيني الذي سمح به الدّين الإسلامي، فكانت نموذجا لتعدُّد الدِّيانات والمذاهب والعيش المشترك، ففيها المساجد والبِيَع، والكنائس،والمدارس، ومن هذا المنطلق جاءت أهمية البحث لِيُبرز تفاصيل هذه الحياة وتنوعها وليربط بين الأرتقيِّين وصلاح الدين في الوقوف ضدَّ الصليبيين.

وقع الاختيار على موضوع هذا البحث لسببين: أولهما مدينة ماردين دون غيرها من المدن التي خضعت للدولة الأُرتُقية، وثانيهما هو اختيار الحياة الدِّينية دون غيرها، فهو اختيار ليس عشوائيا؛ فمدينة ماردين هي من أبرز المناطق التي انطلق منها الأُرتُقية والأيوبيون لفتح بيت المقدس، وهذه المدينة تتميز ببُعدها التاريخي وقلعتها الحصينة. أمّا الحياة الدِّينية فقد تميَّزت مدينة ماردين بتنوع دياناتها من نصرانية بمختلف طوائفها إلى يهود فضلا عن المسلمين، كما كانت الباطنية موجودة فيها، لكنَّ الوجود النصراني السرياني هو الأبرز من بين الديانات الأخرى،ويمكن القول من غير مبالغة إن هناك مئات من الأديرة والبِيَع كانت ولازال الكثير منها موجودا تابعا إداريا لمدينة ماردين، وفيها أيضا المدارس والمكاتب والخانقاهات[1] والزوايا، وكان التَّعايش هو السائد بين هذه الديانات والطوائف، فضلا عن التركيبة السكانية المتنوعة من عرب وكُرد وتُرك، بالإضافة إلى مذهبها السُّني من ماتريدية وأشعرية[2] ومن حنفية وشافعية وصوفية.

واختيار مائة سنة من الدِّراسة من أرتق بن أكسب (ت. 484هـ/1091م) إلى عهد صلاح الدين الأيوبي(ت. 589هـ/1194م)، لأنَّ هذه الحِقبة هي الأبرز في الدولة الأُرتُقية وجاء بعدها الضَّعف، كما أنَّ هذه الفترة هي الفترة البارزة في جهاد الصليبيين الذين تمَّ تحرير المدن الإسلامية من تحت سيطرتهم، وقمَّة هذا التحرير كان على يد صلاح الدِّين الذي استولى على ماردين قبل التَّوجه لبيت المقدس. فيما يتصل بالدراسة السابقة لم أجد دراسة عُنيت بهذا الأمر، وهذا أضاف عاملا آخر من عوامل اختيار الموضوع.

المبحث الأول: التعريف بماردين وبأبرز رجالات الدّولة الأُرتُقية وأنشطتهم

مدينة ماردين

مدينة ماردين هي عاصمة ولاية ماردين، وتقع في الجزء الجنوبي الشرقي من تركيا، حيث تتصل مع دولة سوريا في حدودها، وتطل على المناطق السهلية من جزيرة الفرات، وتمتاز بشدة البرد في فصل الشتاء وبالاعتدال في فصل الصيف، كما أنها تمتاز بتنوّع الديانات فيها، وتنوّع اللغات مثل اللغة العربية، والتركية، والسريانية، والآرامية، بينما تتحدث الأقليات لغاتٍ أخرى، فالسكان يتنوعون من حيث الأصول والأعراق والثقافات. يرى ياقوت الحموي أنّ ماردين بكسر الراء والدال جمع مارد، والمارد هو من الجن، وقلعة ماردين عنده:

> قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة مشرفة على دُنَيْسِر[3] ودَارَا[4] ونصيبين، وذلك الفضاء الواسع وقدامها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط وخانقانات، ودورهم فيها كالدرج كل دار فوق الأخرى، وكل درب منها يشرف على ما تحته من الدور، ليس دون سطوحهم مانع، وعندهم عيون قليلة الماء، وجل شربهم من صهاريج معدة في دورهم، والذي لا شك فيه أنه ليس في الأرض كلها أحسن من قلعتها ولا أحصن ولا أحكم، وكان فتحها وفتح سائر الجزيرة في سنة 19 وأيام من محرم سنة 20 للهجرة في أيام عمر بن الخطاب.[5]

مؤدًى كلامه أنّ ماردين مأخوذة من مادّة (مَرَدَ) ومن هنا تم إطلاق الاسم على المدينة، وعند الرجوع إلى معنى كلمة (مَرَدَ) باللغة العربية فهي تعني العاتي والبناء الطويل،[6] كما يلزم من لفظ مَرَدَ "عدم التمكن من الإمساك بالشيء فيخرج عن الطاعة" المَروُد والمارد من الخيل: الذي يجيء ويذهب نشاطًا "أي من شدته. "والمارد من الرجال: العاتي الشديد. مَرَد على الشر وتمرَّد: عتا وطغى. تمرّد علينا"،[7] وهذا المعنى في الحقيقة موجود في قلعة ماردين فهي عصيّة على كل من يريد اقتحامها واحتلالها، بينما تشير بعض الآراء إلى أنّ الاسم قادمٌ من لفظ آرامي ويعني القلعة.[8]

من أبرز ما تتميز به ماردين قلعتها، قال ابن الجوزي(ت:597هـ/1201م) نقلا أبي الحسين بن المنادي متحدثا عن القلاع:

> ومن أعجبها بنيانا وأمنعها قلعة ماردين، فإنّها أُسست على مصابرة الطالب أربعين عاما فلو نزل عَلَيْهَا ملك بجيشه هذا المقدار لما افتتحها، لأنه يدخر فِيهَا قوت أربعين سَنَة ولا يتغير، وتسع بيوتها ومناراتها من المدخر هُوَ أَكْثَر مقدارا من ذَلِكَ، وفيها من العيون العذبة عشرات كثيرة.[9]

وقال ابن جبير(ت:614هـ/1217م) في رحلته واصفا قلعة ماردين: "لها قلعة كبيرة هي من قلاع الدنيا الشهيرة"،[10] ووصف ابن شداد (ت:684هـ/1285م) ماردين وقلعتها بقوله إنها "قلعة على

قنة[11] هذا الجبل... ولارتفاع منازل البلد ومساكنه لايعلو فوقه طير ويُرى السحاب دونه"،[12] وقد رأيتُ في أيام الشتاء كيف يصطدم السحاب بقلعتها العالية، ويكسو الضباب المدينة طيلة الشتاء لعلوها، ويصل الأمر أحيانا أنْ لا ترى أمامك بضعة أمتار.

كما كانت ماردين مركزا متميزا لتبادل الثقافات وللتواصل التجاري والاقتصادي، وثغرا كبيرا من ثغور المسلمين حيث استعصت على دخول التتار لمدة طويلة من الزمن، بالإضافة إلى كونها عاصمة الدولة الأُرتُقية ما يقارب ثلاثمائة سنة، وما تزال آثار ماردين من مساجد وبِيَع وأسواق وأسوار ومدارس وأسوار وقلعتها العظيمة شاهدة على عِظَم تاريخها وأصالة حضارتها.[13] ومن أبرز المناطق التابعة لمدينة ماردين مدينةُ نصيبين حيث وصفها ابن جبير قائلا:

> شهيرة العتاقة والقدم، ظاهرها شباب، وباطنها هرم، جميلة المنظر، متوسطة بين الكبر والصغر، يمتد أمامها وخلفها بسيط أخضر مد البصر، قد أجرى الله فيه مذانب من الماء تسقيه، ويصل الى جامعها المُكرَّم منه سَرَبٌ يخترق صحنه، وينصب في صهريجين: أحدهما وسط الصحن، والآخر عند الباب الشرقي منه، ويفضي الى سقايتين حول الجامع، وعلى النهر المذكور جسر معقود من ضم الحجارة يتصل بباب المدينة القبلي، وفيها مدرستان ومارستان واحد.[14]

أبرز رجالات الدّولة الأُرتُقية وأنشطتهم

ينتمي أرتق بن أكسب (ت.484هـ/1091م) إلى قبيلة الدقر التركمانية وترجع إلى إحدى البيوت الكبيرة المسماة الأغوز أو الغز، والتي انتهت زة الأغوز أو الغز إلى الأرتق، وتُعدُّ الدولة الأُرتُقية جزءا من الدولة السلجوقية، حيث كان أرتق من ملوك السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان، والملك ألب أرسلان كان ثالث سلاطين السلاجقة حكم بين(465-485هـ/1073-1092م).[15] كان أرتق لا لهم على بعض المناطق حيث قدم لهم خدمات كبيرة مما جعله بارزا، ومن أبرز أسباب اشتهاره أنه في (470هـ/1077م) ترأس حملة عسكرية لقتال قرامطة البحرين والمناطق المجاورة وإخضاعهم للسلاجقة فتم له النجاح في ذلك،[16] كما "كان منصورا لم يشهد حربا إلا وكان الظفر له"[17] وبعد ين جعله السلطان ملكشاه السلجوقي (ت.485هـ/1092م) تحت إمرة أخيه تاج الدولة تُتُش (ت:487هـ/1094م) في الحملة السلجوقية التي توجهت إلى بلاد الشام وكان قبل توجهه لبلاد الشام قد اقتطع له السلطان بعض المناطق في العراق ليكون لا فيها.

في سنة (475هـ/1082م) سار الأمير أرتق إلى بيت المقدس سعيا للانضمام إلى تُتُش فأقطعه القدس سنة(479هـ/1086م)، والمرجَّح أنه بقي في القدس حتى مات(ت:484هـ/1091م)،[18] وقد

كان للقدس أهمية كبرى وذلك بسبب قداستها لدى المسلمين، ووقوعها على الخطوط الأمامية في الصراع بين السلاجقة والفاطميين في مصر، مع ملاحظة أنَّه كان للتتش خلافات كبيرة مع أخيه ملكشاه في آخر الأمر. توفي أرتق سنة (484هـ/1091م) وترك ولدين هما معين الدين سُقْمان، ونجم الدين إيلغازي، وقد سارا على نهج أبيهما في تأييد تُتُش الذي استطاع الانتصار على كل معارضيه من السلاجقة.[19]

سقوط القدس وتراجع الأُرتُقية إلى ديار بكر وماردين

توفي أرتق في بيت القدس، تاركا ولديه سُقمان وإيلغازي، وقد قدَّم أرتق خدمات كبيرة للدولة السلجوقية، حيث استطاع بحملاته العسكرية أنْ يساهم في توسعة الدولة السلجوقية من جهة البحرين والأناضول وديار بكر ويمكن اعتباره واضع الكيان السياسي للأراتقة، ولكن بعد وفاته دبَّ الضعف فيهم فاستغل الفاطميون ذلك فاستولوا على القدس، وسمحوا لمن بقي من الأُرتُقية بالخروج منها فساروا إلى دمشق سنة (491هـ/1098م). لم يستقر ولداه في دمشق فاتَّجها إلى الموصل والعراق، وديار بكر ومدينة سروج التركية، اختار نجم الدين إيلغازي بغداد، واتَّجه مُعين الدين سقمان إلى ديار بكر، وكانت أولى الإمارات الأُرتُقية هي ديار بكر التي دخلها سُقمان سنة (495هـ/1102م)، وكان صاحب خبرة عسكرية ودهاء، وفي سنة (496هـ/1103م) استطاع الاستيلاء على ماردين، ولكنه لم يعش طويلا حيث توفي سقمان على طريق دمشق في منطقة القريتين، وكان على رأس حملة اتجه بها لنجدة طرابلس ضد الصليبيين وتوفي سنة (498هـ/1105).[20]

بعد وفاة سُقمان رجع إبراهيم بن سقمان الذي كان مرافقا لأبيه ليبقى في ديار بكر، بينما اتجه عمه نجم الدين إيلغازي الذي كان في العراق ليتوسع في حدود الشمال ويستقر هو وأولاده في مدينة ماردين،[21] وقد كانت ماردين قبل ذلك تحت ولاية أخيه، وبعد وفاة أخيه تولَّاها هو، وكان نجم الدين إيلغازي" فارساً شجاعاً كثير الغزو كثير العطاء"،[22] ويقول الذهبي أيضا واصفا له: "وكان ذا شجاعة، ورأي، وهيبة وصيت، حارب الفرنج غير مرة"،[23] وقد استطاع نجم الدين إيلغازي أمير ماردين أن يصنع حوله الأحلاف والتكتلات واستطاع السيطرة والتوسع شرقا نحو نصيبين التي تُعد من أعمال ماردين،[24] وبقي بها، وكان له دور كبير جدا في قتال الصليبيين عندما حاصروا حلب في معركة جرت في سهل بلاط سنة (513هـ/1119م) وأسر زعيمهم أمير أنطاكية، وتملك حلب وأقام فيها دولة أرتقية قام بضمها إلى مدينة ماردين مركزه الأصلي.[25]

وقد كان خروجه لقتال الصليبيين ذلك بمراسلة أهلها بعد أن أيقنوا عجز أمرائها من أحفاد رضوان بن تتش من حمايتهم من الصليبيين،[26] وتوجهه لحلب كان من أبرز أعماله لقتال الصليبيين؛ وذلك لما

تتمتع به حلب من موقع جغرافي وبشري واقتصادي، ومن المعلوم أنّ حلب تقع بين إمارتين صليبيتين هما الرُّها وأنطاكيا، فعلم أنَّ مقاتلة الصليبيين والتصدي لهم تبدأ من مدينة حلب، ولذا قام بالاستيلاء عليها، والاستيلاء عليها كان من بدايات أعماله.[27]

بعد أن ضم حلب إلى ماردين ترك نجم الدين إيلغازي ابنه سليمان في حلب فأفسد في حلب وعصى أباه في سنة خمس عشرة وخمسمائة، فسمع والده الخبر فسار اليه وقبض عليه وأُحضر ولده وهو سكران وأراد قتله فمنعه رقّة الوالد فاستبقاه فهرب الى دمشق، واستناب ايلغازي بحلب سليمان بن أخيه عبد الجبّار بن أرتق ورجع نجم الدين إلى ماردين، وفي سنة ستّ عشرة وخمسمائة في شهر رمضان توفي الأمير ايلغازي بن أرتق، وملك ابنه حسام الدين تمرتاش مدينة ماردين[28] وبقي فيها حتى سنة 547هـ حيث توفي فيها، واستطاع خلال هذه الفترة أن يجعل من ماردين قوية، وخاصة بالتزامه الحياد وعدم المناوشة مع الدولة الزنكية، وتولى بعده ابنه نجم الدين ألبي،[29] ثم تولى بعده ابنه حسام الدين بولق وقد كان طفلا صغيرا لم يستطع القيام بأعباء الدولة.

في هذه الأوقات تضاءلت العلاقات بين الدولة الزنكية والدولة الأُرتُقية بعد وفاة نور الدين الزنكي سنة (569هـ/1173م)، وما إن توفي نور الدين الزنكي حتى قام صلاح الدين بخطة توحيد الإمارات الإسلامية في الجزيرة والشام ليتسنى له إعلان الجهاد ضد الصليبيين وتخليص القدس.[30]

عندما بدأ صلاح الدين بتوحيد الإمارات الإسلامية استعدادا للهجوم على الصليبيين أظهر الأُرتُقية اعتراضا في مستهل الأمر؛ لأنهم رأوا خطرا يهدد ملكهم، ولكن عندما استولى صلاح الدين على حلب وهي أول مدينة اتجه إليها صلاح الدين دخل الأُرتُقية في صلح ومسالمة، واستمر الأمر مدة من الزمن حتى ساءت العلاقات بين صلاح الدين وبين الأرتقيِّين في ماردين فاتَّجه صلاح الدين واستولى على ديار بكر وماردين[31].وهذه شجرة لأبرز رجالات الدولة الأُرتُقية.

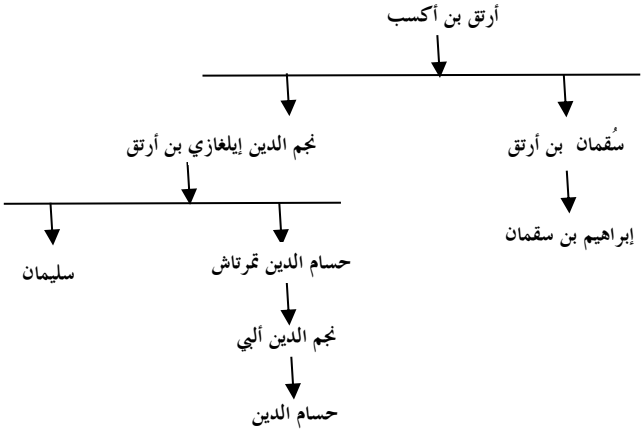

المبحث الثاني: الحياة الدينية في ماردين

اليهود والنصارى

تتكون مدينة ماردين من طوائف عدة، ففيها النساطرة والسريان والملكانيون وهناك الأرمن واليعاقبة وهؤلاء كانوا يشكلون النسبة الأكبر من ماردين وما جاورها وهناك المارونيون، ومن المعلوم أن المسيحيين كانوا يشكلون أغلب سكان الرُّها القريبة من ماردين. لهذا السبب انتشرت مراكز العبادة كالأديرة والكنائس والصوامع، والسياسة الة التي اتبعها المسلمون في المدن التي يفتحونها هي ترك أهلها مع عبادتهم من غير إكراههم في الدخول إلى الدين مقابل الجزية التي يدفعونها.[32]

إنَّ المعلومات عن وجود يهود في مدينة ماردين وماحولها قليلة، والذي ذكره بنيامين التطيلى (ت:569هـ/1173م) في رحلته وقد كان معاصرا للدولة الأُرتُقية أن مدينة رأس العين التابعة لماردين رأس العين فيها نحو مائتي يهودي، وفي بلدة نصيبين نحو ألفي يهودي.[33] أما بالنسبة للنصارى فوجودهم في ماردين وما جاورها سابق للفتح الإسلامي حيث تحدث ول ديورانت عن نسطوريوس (386-451م) الذي رفض القول بأنَّ مريم العذراء هي أم الله، والأحرى أن يقال هي أم البشرية، واستشاط البابا جلستين Celestine الأول غضباً من هذه الآراء فعقد مجلساً في روما في سنة 430م، وطالب بأن يرجع نسطوريوس عن آرائه أو يعزل من منصبه، فلما رفض نسطوريوس كلا المطلبين لم يعزل نسطوريوس فحسب بل حرمه أيضاً من الكنيسة المسيحية، وتمَّ تهجيره إلى شرق سورية وهناك أنشأ مدرسة عظيمة الأثر في نصيبين،[34] وعقيدته هنا هي الأقرب للتوحيد، وفي هذا السياق نجد من بطارقة كنيسة المشرق النسطوريين "مار يشوعياب الأرزوني" (ت.596م) من أصل عربي، درس الديانة في "نصيبين" ثم ترقى حتى صار "بطريكا" على النساطرة سنة 580م.[35]

المسيحيون في منطقة ماردين وما جاورها كانوا ينتمون إلى طوائف عديدة كالنساطرة والسريان والرهبان الجرجان واليونانيين الروم والملكانيين الذين انتشرت بينهم اللغة العربية، وهناك الأرمن الجرجان واليعاقبة وكان لهؤلاء الأخيرين عدد من الأساقفة في المواضع التي تمركزوا فيها،[36] ومن بلداتها حرزم وأكثر أهلها أرمن نصارى،[37] وكان في جبل نصيبين عدد كبير من الأديرة والصوامع،[38] ومن أبرز الأماكن الدينية للعبادة هو دير زعفران.

دير زعفران

الأديرة كثيرة جدا في مدينة ماردين وما حولها ولعل أشهرها دير الزعفران، وقد كتب الأب أفرام برصوم كتابا كاملا حول هذا الدير سماه "نزهة الأذهان في تاريخ دير الزعفران" وصف كل ما يتعلق بهذا الدير ولم يقتصر عليه، فقد وصف الأديرة الموجودة في ماردين وأقضيتها ولكنه جعل اهتمامه الأكبر بدير

الزعفران، ومن الملاحظ أنَّ الكتاب طُبع بمدينة ماردين بالمطبعة السريانية مما يدل على وجود المطابع، وأماكن التسوق والتجارة، وقد رأينا الكثير من الحوانيت لبيع الخمور في ماردين القديمة بجانب قلعتها الشهيرة والتي تعود ملكيتها للسريان.

ذكر الأب أفرام برصوم في كتابه السابق أن هذا الدير يرجع إلى الكنيسة السريانية، وأنّه مقر للبطريركية الأنطاكية، وهو أشهر معابد السريان، يبتعد عن مدينة ماردين ساعة من جهة الشرق، يبلغ طوله 63 مترا وعرضه 71 مترا، ومن أبرز أبنيته كنيسة مار حنايا وكنيسة السيدة وكنيسة الكرسي ومدفن الآباء والفردوس، ثم أخذ يصف هذه الكنائس وعدد أبوابها وحجمها، وأصل دير الزعفران عبارة عن حصن شيده بعض ملوك الروم لابنه.[39] ثم ذكر بعد ذلك الأديرة المرتبطة بمدينة ماردين وأقضيتها حيث ذكر ثلاثا وثلاثين ديرا وقال "هذه أخص أديار السريان المعروفة في هذه الديار، وهناك أديرة أخرى كثيرة".[40] قال ياقوت الحموي عن دير زعفران: "كان يزرع فيه الزعفران، وهو دير نزه فرحٌ لأهل اللهو به مشاهد، ولهم فيه أشعار، وفي جبل نصيبين عدة أديرة أُخرى".[41]

وذكر ياقوت الحموي أبياتا من الشعر قيلت في وصف دير زعفران وما حوله، وهي أبيات تدل على حياة البذخ والخمور التي كانت مرتبطة بذلك المكان، ومن هذه الأبيات التي ينقلها عن الشاعر مصعب الكاتب قائل هذه الأبيات:

عَمَرتُ بِقاعَ عُمرِ الزَعفرانِ ... بِفِتيانٍ غَطارِفَةٍ هَجانِ
بِكُلِّ فَتىً يَحِنُّ إِلى التَصابي ... وَيَهوى شُربَ عاتِقَةِ الدِنانِ
بِكُلِّ فَتىً يَميلُ إِلى المَلاهي ... وَأَصواتِ المَثالِثِ وَالمَثاني
ظَلَلنا نُعمِلُ الكاساتِ فيهِ ... عَلى رَوضٍ كَنَقشِ الخُسرُواني
وَأَطيارٍ إِذا غَنَّتكَ أَغنَت ... عَنِ ابنِ المارِقِيِّ وَعَن بُنانِ
نُجاوِبُها إِذا ناحَت بِشَجوٍ ... بِقَهقَهَةِ الهَواقِزِ وَالقَناني
وَغِزلانٍ مَراتِعُها فُؤادي ... شَجاني مِنهُمُ ما قَد شَجاني
رَضيتُ بِهِم مِنَ الدُنيا نَصيبي ... غَنيتُ بِهِم عَنِ البيضِ الغَواني
أُقَبِّلُ ذا وَأَلثِمُ خَدَّ هَذا ... وَهَذا مُسعِدٌ سَلِسُ العِنانِ[42]

مار يوحنا مطران ماردين

غدت أديرة ماردين منذ أواسط القرن السادس الهجري من أجمل الأديرة بفضل الإصلاحات الكنسية التي قام بها مار يوحنا الذي عينه البطريرك أثناسيوس السادس مطرانا على ماردين لما يتمتع به من فضل ولباقة وذلك سنة (519هـ/1125م)، ومن ثم انهمك بالبحث والمطالعة للكتب الدينية والعلمية وبخاصة الهندسة والمساحة وذاع صيته في تحويل مياه العيون والأنهار، وسرعان ما نال الحظوة لدى أمراء المنطقة

وحصل على ثروة طائلة أنفقها في الإصلاح الكنسي، فقام ببناء وترميم عدد من الأديرة والكنائس الخربة، وأقام لها الكهان والرهبان، كما سعى لبناء المعاهد الدينية والمكتبات وزودها بالكتب الدينية واللاهوتية المختلفة وأوقف لها الأوقاف، وعندما اطلع على مالحق بالقوانين الكنسية من إهمال منذ عهد بعيد أبدى همة كبيرة وجمع في ديره مجمعا برئاسة إغناطيوس الثاني مفريان المشرق، حيث قام الآباء بسن أربعين قانونا سنة (548هـ/ 1153م) وقد ضمن القوانين كلا من ماردين ودارا والخابور وبعض المواقع المجاورة الأخرى، وقدم لها سبعمائة من القُسُس والشمامسة. توفي يوحنا سنة (561هـ/1166م) بعد أن جعل من دير الزعفران القريب من ماردين أهلا لأن يكون كرسي البطركة.[43]

تحدَّث الأب برصوم عن يوحنا مطران ماردين، بشكل مفصل عن ولادته ووفاته ورهبنته وفضائله، وذكر أنه لفرط نشاطه وصل عدد القسيسيين في مارين وما يتبعها أكثر من (700)،[44] وهذا يدل على التوسع للنصارى في عصر الدولة الأُرتُقية، وذكر أن عدد الأديرة التي بناها أكثر من خمسة عشر ديرا، وأن عدد الأسقف التي خصصها لهذه الأديرة ستين أسقفا،[45] كما شيّد أربعا وعشرين بيعة صغيرة في نواحي ماردين، و لم يكتفِ بالبناء بل أجرى لها أوقافا خاصّة بها.[46] نظرا لأهمية ماردين فقد أشار بعضهم على إثناسيوس السابع أن يتخذ ماردين كرسيا لبطريركيته بدلا من انطاكيا فوافق على ذلك، لكنه توفي في العام التالي، فتم ذلك على يد خليفته ميخائيل الأول الذي انتقل إلى ماردين حيث احتفل بجلوسه على الكرسي البطريركي، وخطب ابن الصليبي العلامة خطبة بليغة بالسريانية وكان ذلك يوما مشهودا من أهم الأيام التاريخية التي شهدتها المنظمات الكنسية في المنطقة، واكتفى ميخائيل بالتردد إليها مستثقلا الأعباء المطلوبة منه وأقام عوضا عنه أخاه المطران صليبا.

وقد استمر البطاركة الذين أعقبوه على سياسة سلفهم بالتنقل بين ماردين وملطيا وسيواس وضواحيها، وقد بقي بعضهم في مادرين مدة لا بأس بها كإثناسيوس الثامن. في سنة (692هـ/1293م) وبعد وفاة البطريرك فلكسين صار انشقاق في الكنسية وجلس ثلاثة بطاركة وهم ميخائيل في سواس وقسطنطين في مالاطيا، وإغناطيوس بن وهيب في ماردين وأصبح لماردين كرسيا دائما طيلة عهد الأُرتُقية مما كان له أثره الفعال على نشاط المسيحية في المنطقة طيلة تلك الفترة واتساع مؤسساتها الكنسية. كان دير الزعفران في ماردين هو المقر الذي اتخذته البطريركية كرسيا لها ومن ثم شهد نشاطا دينيا واسع النطاق وعقد فيه عدد من المجامع الانتخابية وأهمها ماتم في عهد الأُرتُقية المجمع الأول حيث انتخب أغناطيوس مطرانا لماردين (693هـ/1103م).

وفضلا عن المجامع الانتخابية السالفة شهد دير الزعفران طيلة الحكم الأرتقي عددا آخر من المجامع الة التي اتخذت فيها قرارات على درجة كبيرة من الأهمية، وسنت قوانين كنسية عديدة، وأهم

تلك المجامع : المجمع الأول (548هـ/1153م)، الذي عقده يوحنا الرابع مطران ماردين، حيث جدد الآباء خلاله القوانين الرسولية، ووضعوا أربعين قانونا في الأسرار الدينية والوعظ وتعليم السريانية وإنشاء الملاجيء للفقراء والغرباء، والمجمع الثاني الذي عقد (562-563هـ/1167-1168م) برئاسة[47] البطريرك ميخائيل الأول حيث تم سن تسعة وعشرين قانونا، والمجمع الرابع سنة (570هـ/1174م) برئاسة ميخائيل حيث تم وضع ستة وثلاثين قانونا وهكذا استمرت المجامع.

وقد رافق هذا النشاط الكنسي عمليات إنشاء وإصلاح عمراني واسعة النطاق لعدد كبير من الأديرة منها دير مار أسطفانس شمالي ماردين، دير مار جرجس على جانب سور ماردين، دير مار اليساء النبي في لحف جبل ماردين، دير مار حنانيا قرب ماردين . كما تم تشييد ما يزيد على الخمس كنائس وأربع وعشرين بيعة خلال هذه الفترة. وقد أوقفوا لهذه الأديرة والمؤسسات الدينية عددا كبيرا من مرافق الوقف لسد حاجات أهلها وضيوفها، وأصبحت الأوقاف لهذه المدارس تشمل أراضي واسعة وبساتين وكروم، كما كانت الضرائب والرسوم تُجمع لها.

أسهمت المؤسسات الكنسية خلال العهد الأرتقي بنصيب وافر في الحركة الثقافية، وأنشأوا المكتبات التي حوت بشكل خاص الكتب المقدسة وكتب الدين والمنطق واللاهوت والفلسفة، وكانت مكتبة الزعفران تضم عددا كبيرا من الكتب. وقد كانت لهم أنشطة تجارية وثقافية متعددة، وأبرز الأمور في مدينة ماردين وما جاورها أنها كانت موطنا للمجمعات المسيحية وبذلك أصبحت ماردين كرسيا للبطاركة وكان دير الزعفران في ماردين هو المقر الذي اتخذته البطريركية مقرا له وعقد فيه عدد من المجامع الانتخابية وأهمها المجمع الأول حيث انتخب أغناطيوس مطرانا لماردين سنة (548هـ/1153م).[48]

المبحث الثالث: معاملة الأرتقيِّين للديانات والطوائف

معاملة المسيحيين

عامل الأُرتُقية رعاياهم من المسيحيين معاملة طيبة، وهناك إشارات عديدة إلى ماكان يتمتع به بعض رجالات المسيحيين من مكانة لدى الأُرتُقية، منهم الحسن بن خالد بن محضر النصراني المارديني الملقب بالوحيد، وكان قد واظب على الاشتغال بالعلم في أول شبابه واتقن علم الأوائل وبرز فيه كما نظم الشعر، وكان بينه وبين قطب الدين إيلغازي بن أرتق أمير ماردين صحبة في عهد الطفولة، فكان إيلغازي يعاتبه على الانقطاع عنه ويندبه لخدمته إلى أن استجاب لدعوته، وسرعان ماتقدم عنده وصارت له المنزلة الرفيعة والاحترام والتقدير وسافر إلى بغداد ثم عاد إلى ماردين حيث توفي سنة (600هـ/1203م). كما قام الأُرتُقية بتولية بعض المسيحيين كبرى المناصب فكان وزير صاحب رأس عين المجاورة لماردين نصرانيا من آل عبود، كما منحوا الاستقلال الذاتي لبعض المناطق المسيحية في إماراتهم.

وبالرغم من هذه المكانة التي حظي بها المسيحيون والتسامح الذي عُوملوا بها إلا أنهم لم يكفوا عن تدبير الدسائس ضد الأُرتُقية بالاشتراك مع ملوك أرمينية، ولذا وقع هؤلاء المسيحيون فريسة لأعمالهم، وهكذا نجد أن العقاب الذي نزل بهم ذو طابع سياسي وليس بدافع التعصب الديني، كما لعب المسيحيون في ماردين دورا خطيرا في سقوط هذه المدينة الحصينة بأيدي التتر (659هـ/1164م).[49]

المذهب السني

على الرغم من ظهور طوائف عديدة بين المسلمين في عهد الأُرتُقية كالشيعة والباطنية إلا أن التزام الأُرتُقية بالمذهب السني ووجود أكثرية سنية ساحقة من أهل المنطقة قلَّل إلى حد كبير من أهمية الطوائف الأخرى، وأدى إلى القضاء على بعضها قضاء نهائيا، وقد سلك الأُرتُقية سبيل أسلافهم السلاجقة في الدفاع عن المذهب السني وتنشيط مؤسساته الدينية والفكرية، وبالرغم من اعتناق الأُرتُقية المذهب الحنفي أسوة بالسلاجقة إلا أنهم لم يتعصبوا له وقاموا بإنشاء عدد كبير من المدارس خصص معظمها لتدريس المذاهب الثلاثة الأخرى فضلا عن الحنفية وخاصة الشافعية التي راجت على أيدي الأكراد والأيوبيين، كما أن الأُرتُقية عينوا في المناصب القضائية قضاة من شتى المذاهب حتى إن سقمان بن أرتق اضطر إلى عزل قاضيه على القدس الحنفي بسبب تعصبه على المذاهب الأخرى.[50]

وظهر المتصوِّفة وكانت لهم الربط والخانقاهات فالتف الناس حولهم وافتتنوا بهم وراجت على الألسنة كراماتهم، وأشهرههم الشيخ حسن بن عبد الرحمن الذي نزل إلى ماردين وانصرف إلى الزهد والتقوى،[51] مما أدى إلى أن يجتمع حوله سكان ماردين ولاسيما وجهاؤها وأعيانها، واتفق أن ابتليت ابنة أمير ماردين بمرض حتى كاد يؤدي بها إلى الجنون و لم تُجدها معالجة الأطباء فتولى الشيخ حسن بعض التعاويذ والرقى على جرعة ماء ورشها عليها، وبعد أنْ شُفيت رغب الأمير بتزويجها منه فرفض الشيخ حسن فتزوجها ابنه، وأنعم عليه أمير ماردين بإحدى المقاطعات.[52] ومنهم الشيخ يونس بن يوسف الشيباني القنيني (ت.619هـ/1222م) نسبة إلى القنيَّة وهي قرية في نواحي ماردين، والشيخ يونس هو شيخ الطائفة اليونسية الذين يصفهم ابن العماد بأنهم أولي الشطح، وقلة العقل، وكثرة الجهل وكان الشيخ صاحب حال وكشف وكرامات ورافق كل ذلك قصص كثيرة عن الجن لاقت رواجا لدى أهل المنطقة وارتفعت مكانة المنجمين.[53]

ويمكن الجزم بأنَّ العقيدة التي كانت منتشرة هناك متوزعة بين الأشعرية والماتريدية، فالعقيدة الأشعرية كانت مرتبطة بالمذهب الشافعي،[54] وعموم الأكراد في تلك المنطقة حتى الآن هم أشاعرة، والأشعرية كانت موجودة في الدولة النورية الموجودة في أحضان الدولة السلجوقية، وقد تربَّى صلاح الدين على هذه العقيدة، يقول المقريزي (ت.845هـ/1441م): "فلما ملك السلطان الملك الناصر

صلاح الدين يوسف بن أيوب ديار مصر، كان هو وقاضيه صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس الماراني على هذا المذهب، قد نشآ عليه منذ كانا في خدمة السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي الذي حكم من (541-569هـ/1259-1173م)، وحفظ صلاح الدين في صباه عقيدة ألفها له قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري (ت.578هـ/1339م)،[55] وصار يحفظها صغار أولاده،[56] فلذلك عقدوا الخناصر وشدّوا البنان على مذهب الأشعري، وحملوا في أيام دولتهم كافة الناس على التزامه، فتمادى الحال على ذلك جميع أيام الملوك من بني أيوب، ثم في أيام مواليهم الملوك من الأتراك... فكان هذا هو السبب في اشتهار مذهب الأشعري وانتشاره في أمصار الإسلام، بحيث نسي غيره من المذاهب، وجهل حتى لم يبق اليوم مذهب يخالفه "،[57] ومن أبرز ما قامت به الدولة السلجوقية هو المدارس ومن أبرزها المدرسة النظامية،[58] ومن أبرز القائمين عليه هو الإمام الغزالي (ت.505هـ/ 1111م) وقد كان شيخ الأشاعرة في عصره من غير منافس، كما كان شافعيا.[59]

ولاننسى الوجود الماتريدي الذي كان مترافقا مع وجود الحنفية أيضا، والمناطق التي وُجد فيها الأتراك هي مناطق الماتريدية نسبة إلى أبي منصور الماتريدي (ت.333هـ/944م) وكان يسير على مذهب أبي حنيفة، ومن أبرز علماء هذه المنطقة " نجم الدين عمر النسفي (ت.537) هو أبو حفص نجم الدين عمر بن محمد ابن أحمد بن إسماعيل ...بن لقمان الحنفي النسفي السمرقندي، وله ألقاب عدة أشهرها: نجم الدين، ولد في نسف سنة (462هـ/1070م)، كان من المكثرين من الشيوخ، فقد بلغ عدد شيوخه خمسمائة رجلاً ومن أشهرهم: أبو اليسر البزدوي... وله مؤلفات بلغت المائة، منها: مجمع العلوم، التيسير في تفسير القرآن، النجاح في شرح كتاب أخبار الصحاح في شرح البخاري وكتاب العقائد المشهورة بالعقائد النسفية، والذي يعد من أهم المتون في العقيدة الماتريدية".[60] ومن أبرز أعلام هذه المنطقة على الإطلاق المعاصر للدولة الأُرتُقية هو أبو اليسر البزدوي الحنفي الماتريدي شيخ النسفي السابق الذي توفي (سنة 493هـ/1100م).[61]

الباطنية

نشأت الدولة الأُرتُقية في أحضان الدولة السلجوقية، وقد كان النشوء الفعلي للدولة السجلوقية سنة (429هـ/ 1038م)[62] والدولة السجلوقية هي التي قضت على الدولة البويهية الشيعية التي حكمت من سنة (334-447هـ/ 945-1055م)، وقد كان الخلاف بين الشيعة والسنة كثيرا، وكانوا من الكثرة وتأييد السلطان لايستطيع أهل السنة منعهم، يقول ابن الأثير(ت.630هـ/1233م) في حوادث سنة (353هـ/ 964م): "أمر معز الدولة الناس أن يغلقوا دكاكينهم، ويبطلوا الأسواق والبيع والشراء، وأن يظهروا النياحة... وأن يخرج النساء منشرات الشعور، مسودات الوجوه، قد شققن ثيابهن، يدرن في

البلد بالنوائح، ويلطمن وجوههن على الحسين بن علي رضي الله عنهما، ففعل الناس ذلك، و لم يكن للسنة قدرة على المنع منه لكثرة الشيعة، ولأن السلطان معهم".[63]

وقد كان هناك صلة واضحة بين البويهيين وبين الباطنيين فكان البويهيون يمدون الباطنيين الإسماعيليين بالسلاح.[64] ولاننسى أنَّ جذور الباطنية كانت موجودة ومتاخمة لحدود ماردين من جهة الجنوب، حيث خضعت حلب والموصل وبعض أجزاء من بلاد الشام، للدولة الحمدانية (317-394هـ/ 929-1004م)، ويغلب التَّشيع على الحمدانيين، وأصلهم من قبيلة تغلب العربية.[65] فالباطنية انوا موجودين قُبيل نشوء الدولة الأُرتُقية وكانوا قريبين منها واستمروا بعدها، يقول الذهبي (ت:748هـ/ 1347م) في حوادث سنة (364هـ/ 975م) «وفي هذه السنين وبعدها كان الرفض يغلي ويفور بمصر والشام، والمغرب، والمشرق لا سيما العُبَيْدية الباطنية، قاتلهم الله».[66]

وفي عصر نشوء الدولة الأُرتُقية انتشرت أيضا الدعوى الباطنية من جهة الشرق، وليس فقط من جهة جنوب ماردين التي هي مركز الدولة الأُرتُقية، وهذا الانتشار كان في سنة (492هـ/1099م)، بمناطق أصبهان وإيران وكانوا يقتلون كل من خالفهم واستفحل أمرهم وخاصَّة عند ضعف الدولة السلجوقية،[67] وهذا يعني أنَّ جذور الباطنية موجودة ومتاخمة للدولة الأُرتُقية التي تُعدُّ ماردين مركزا لها، وإذا كان الأمر كذلك فلن يستريحوا إلا بالتخلُّص من خصومهم أهل السنة وخاصة السلاجقة الذين قضوا على الدولة البويهية، والأُرتُقية لم يكونوا بعيدين عن منهج السلاجقة، وعلى هذا لم تكن ماردين بعيدا عن التأثير الباطني الإسماعيلي، وخاصة أنه منذ بداية الدعوة الإسماعيلية كان لهم نشاط مجاور لمدينة ماردين؛ حيث نشط الحسن بن صباح (ت.518هـ/1124م)[68] منذ منتصف القرن الخامس الهجري بالدعوة في مدينة ديار بكر القريبة من مدينة ماردين 90 كم، وقد لقي استجابة وحماسا نظرا إلى التنوع السكاني، إلا أنَّ ازدياد عدد هؤلاء في بعض مناطق ديار بكر استفز السكان فثاروا ضدهم وقضوا على نشاطهم، وهذا القرب بين ديار بكر وماردين يجعل هناك شيئا من التَّأثُّر بهم.

ويبدو أنّ الأمر كان واضحا ولذا تجنَّب ملك ماردين إيلغازي (497-515هـ/1104-1122م) التصادم معهم وحاول استمالتهم للاستفادة منهم ففي سنة (513هـ/1119م) عندما نفي زعيمهم سعيد بن بادي من حلب قرَّر الاتجاه إلى إيلغازي ملك مدينة ماردين ولكنه قُتل في الطريق ليساعده بالرجوع على حلب، وبعد ذلك بسنة أصبح للباطنية مركز في حلب وصاروا يطالبون إيلغازي بمنحهم قلعة الشريف الصغيرة القريبة من حلب، فخشية الاصطدام معهم سلك حيلة في ذلك موهما لهم بأنَّه اتخذ قرارا بهدمها قبل مطالبة الإسماعيليين بها خشية الاستيلاء من قبل الصليبيين نظرا لقربها من مناطقهم، فسياسته معهم قائمة على المرونة معهم بل الاستجابة لبعض مطالبهم ومن ذلك توسط إيلغازي لوالي

دمشق بالسماح لإقامة بهرام داعية الإسماعيلية وذلك ليتخلص هو وأبناء حلب من مكائد بهرام وأصحابه الذين دأبوا على اغتيال كل مخالف لهم فظهر بهرام في دمشق برسالة توصية ومساعدة من إيلغازي في سنة (520هـ/1126م) واستُقبل بحفاوة نتيجة هذه التوصية ومُنح الحماية.[69]

ويرى ابن الأثير (ت.630هـ/1232م) أن بهرام اعتمد على إيلغازي اتقاء لشره وشر أصحابه، لأنهم يقتلون غيلة كل من خالفهم وأشار إيلغازي على والي دمشق بأن يجعله عنده وعند ذلك أعلن دعوته "فعظم شره واستفحل أمره، وصار أتباعه أضعاف ما كانوا، فلولا أن عامة دمشق يغلب عليهم مذاهب أهل السنة، وأنهم يشددون عليه فيما ذهب إليه لملك البلد".[70] ومما يؤسف له أن حاكم دمشق طغتكين (ت.593هـ/1196م) أعطاه حصن بانياس لمّا شكى بهرام بأنّه يجد غلظة من أبناء دمشق وبذلك عظم شأنه وتوسع وصار وبالا على أهل السنة.[71]

و لم يظهر لهم نشاط في ماردين أكثر من هذا سوى محاولة اغتيال لأحد الشيوخ المقربين من حسام الدين تمرتاش على يد اثنين من الإسماعيلية وتم القبض عليهم وإعدامهم، ومحاولات الاغتيال كانت منهجا سلكه الباطنيون الإسماعيليون في كل من يقف في وجههم، ولذلك كان مسلك الإسماعيلية في ذلك الوقت من " أخطر معوقات حركة الجهاد ضد الغزاة".[72]

الخاتمة

يمكن القول بأنَّ مدينة ماردين مختلفة عمّا جاورها من المدن الأخرى من جهة جغرافيتها ومياهها وارتفاع قلعتها التي كانت أعجوبة عند المؤرخين، وقد احتضنت أبرز رجالات الدولة الأُرتُقية وخاصّة نجم الدِّين إيلغازي، كما أنَّها احتضنت الكثير من الدِّيانات وبالأخص الديانة النصرانية السريانية. كما تبيَّن أن عدد البِيَع التي كانت موجودة آن ذاك للنصارى كثيرة جدا، وهذا يدحض تلك المقولات التي تصدر من الغرب والتي تصوِّر عدم الحرية الدينية لدى المسلمين، وقد لاحظنا أنَّ الكثير من الأديرة الكبيرة والصغيرة تمَّ بناؤها في العهد الأرتقي و لم يكن الأمر مقتصرا على قضية الترميم والإصلاح.

بمقابل هذه الدِّيانات كان المذهب السني هو السائد وقد تمثَّل ذلك بالمذهب الأشعري المترافق مع المذهب الشافعي فقها، والمذهب الماتريدي المترافق مع المذهب الحنفي فقها، وكان ضمن التوجه السني اهتمام الأُرتُقية بالزوايا والخانقاهات التي تكون مأوى للمتصوِّفة وأهل الزهد وممن انقطعت بهم سُبُل المعاش، وقد كان هذا الأمر امتدادا للدولة السلجوقية، كما أنَّ الدولة العثمانية درجت عليه لاحقا.

هذا التنوع راجع إلى طبيعة مدينة ماردين التي تجمع العرب والترك والكُرد، وقد كان الترك يميلون للمذهب الحنفي السائد في الأناضول وبلاد خراسان ومدينة نسف، وما وراء النهر حتى دولة تركستان

المحتلة الآن من قبل الصين. كما كان العرب والكُرد يميلون للمذهب الأشعري الذي رسَّخت دعائمه الدولة الأيوبية على يد السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي تربَّى على يد نور الدين الزنكي.

بمقابل المذهب السني كان المذهب الشيعي الباطني المحيط بالدولة الأُرتُقية من جهة الجنوب والشرق، و لم تكن سياسة الأُرتُقية حازمة معهم، بل رُبَّما ساهمت بامتداد نفوذهم من جهة دمشق، وقد علَّل ابن الأثير هذا الأمر بأنه محاولة للتخلُّص من شرهم وخاصّة أنَّهم عُرفوا بالاغتيالات السرية، ولكن ذلك لم ينفع معهم؛ إذ ازدادت قوتهم ولاسيما بعد امتلاكهم قلعة بانياس.

ومما لاحظناه أنَّ الدولة الأُرتُقية لم تتخل عن الدفاع عن المسلمين ضدَّ الهجمات الصليبية وخاصّة نجم الدين إيلغازي، ولكن لم يكن الأمر كافيا لردعهم، وهذا ما يُفسِّر لنا بسط السلطان صلاح الدين الأيوبي نفوذه على ماردين وما جاورها لتوحيد هذه المناطق للانطلاق نحو تحرير بيت المقدس. وهذا التحرير الذي قام به صلاح الدين كان مسبوقا بنشر المدارس السُّنية والاهتمام بها للتخلُّص من الخطر الباطني، وقد كان للمدارس التي اهتمَّت بها الدولة النورية الأثر الأكبر في نشر المذهب السُّني المواجه للخطر الباطني، وتحرير بيت المقدس كان يقتضي التخلُّص من الخطر الباطني، وعلى هذا المنوال سار السلطان صلاح الدين.

الهوامش

---

[1] جمع خانقاه، وهو مكان يسكنه أهل الصلاة والخير وفقراء الصوفية، انظر: الزّبيدي، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، **تاج العروس من جواهر القاموس**، المحقق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، مادة خنق، ج25، ص270، ابن عابدين، محمد أمين بن عمر بن عبد العزيز عابدين الدمشقي الحنفي، **رد المحتار على الدر المختار**، دار الفكر-بيروت، الطبعة: الثانية، 1412هـ-1992م، ج1، ص657.

[2] الأشاعرة نسبة لأبي الحسن الأشعري ولد بالبصرة وتوفي فيها (324هـ/925م)، خرج على المعتزلة وصنف كتبا كثيرة منها الإبانة عن أصول الدين، واللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، انتشر المذهب الأشعري وتبعه رجالات كُثُر حملوا هذا المذهب، منهم أبو بكر الباقلاني والجويني والغزالي. والماتريدية نسبة لأبي منصور الماتريدي، ولد في سمرقند في منطقة تُسمَّى ماتريد، وتوفي سنة(333ه/945م) وكان على المذهب الحنفي، من كتبه كتاب التوحيد وكتاب رد الأصول الخمسة والرد على القرامطة، وقد اتفق كل من الأشعري والماتريدي في الرد على المعتزلة، انظر: أبو زهرة، **تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية**، دار الفكر العربي، القاهرة، ص151، 160، 165-167، الخطاف، حسن، **الصفات الإلهية عند الأشعري**، رسالة ماجستير، جامعة الزيتونة، 1999م، ص38.

[3] دُنَيْسِرُ: قال ياقوت الحموي:" دُنَيْسِرُ، بضم أوله: بلدة عظيمة مشهورة من نواحي الجزيرة قرب ماردين بينهما فرسخان، ولها اسم آخر يقال لها قوج حصار، رأيتها وأنا صبيّ وقد صارت قرية، ثم رأيتها بعد ذلك بنحو ثلاثين سنة وقد صارت مصرا لا نظير لها كبرا وكثرة أهل وعظم أسواق، وليس بها نهر جار إنما شربهم من آبار عذبة طيبة مرية، وأرضها حرّة، وهواؤها صحيح" ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي، **معجم البلدان**، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، 1995من ج 2، ص 478.

[4] دارا: بلدة بطرف جبل بين نصيبين وماردين، ذات بساتين ومياه جارية، انظر: الحموي، **معجم البلدان**، ج2، ص214.

[5] الحموي، **معجم البلدان**، ج5، ص39.

[6] ابن فارس، أحمد، **مقاييس اللغة**، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر، النشر: 1399هـ-1979م، ج5، ص 317.

[7] جبل، محمد حسن حسن، **المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم**، الناشر: مكتبة الآداب – القاهرة، الطبعة: الأولى، 2010م. ج4، ص 2062.

[8] موقع الكتروني، **معلومات عن مدينة ماردين التركية**، معلومات-عن-مدينة-ماردين-التركية/https://rjeem.com

[9] ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، المحقق: محمد عبد القادر عطا، مصطفى عبد القادر عطا، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، 1412 هـ/1992م، ج1، ص150.

[10] ابن جبير، محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، **رحلة ابن جبير**، الناشر: دار ومكتبة الهلال، بيروت، دار الهلال، ص 193.

[11] قنة الجبل ذروته وأعلاه، انظر: الأزهري، محمد بن أحمد بن الأزهري، **تهذيب اللغة**، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة: الأولى، 2001م، مادة (قنن) ج8، ص 235.

[12] خليل، عماد الدين، **الإمارات الأُرتُقية في الجزيرة والشام**، مؤسسة الرسالة، مكتبة المهتدين الإسلامية، الطبعة الأولى:1980م، ص 199.

[13] انظر: حسين العلي، **تاريخ الأُرتُقية في مدينة ماردين**، مجلة ماردين، حزيران، 2020، ص 157-158.

[14] ابن جبير، **رحلة ابن جبير**، ص 192.

[15] خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص 57-58.

[16] ابن تغري بردي، يوسف، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصرالنجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج5، ص 106.

[17] ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، **الكامل في التاريخ**، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري، الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1417هـ / 1997م، ج8، ص303.

[18] خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص 67.

[19] خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، 68.

[20] خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص68، 78، 88، 91، 92.

[21] خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص 93.

[22] الذهبي، محمد بن أحمد، **العبر في خبر من غبر**، المحقق: أبو هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت ج2، ص406.

[23] الذهبي، محمد بن أحمد، **سير أعلام النبلاء**، مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر : مؤسسة الرسالة، الطبعة : الثالثة، 1405 هـ / 1985 م، ج19، ص 435.

[24] مجموعة من الباحثين بإشراف الشيخ عَلوي بن عبد القادر السقاف،كتاب الموسوعة التاريخية، **الدُّرر السنية**، موجز مرتب مؤرخ لأحداث التاريخ الإسلامي منذ مولد النبي الكريم – صلى الله عليه وسلم – حتى عصرنا الحالي، ج4، ص 158، إعداد: الناشر: موقع الدرر السنية على الإنترنت dorar.net

[25] كتاب الموسوعة التاريخية، **الدرر السنية**، ج4، ص 158.

[26] خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص98، وانظر:العقيلي، عمر بن أحمد، **زبدة الحلب في تاريخ حلب**، وضع حواشيه: خليل المنصور، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1996 مص 267.

[27] الصلابي، علي محمد، **دولة السلاجقة وبروز مشروع إسلامي لمقاومة التغلغل الباطني والغزو الصليبي**، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى، 2006،ص 574

[28] غريغوريوس، ابن أهرون، **تاريخ مختصر الدول**، المحقق: أنطون صالحاني اليسوعي، الناشر: دار الشرق، بيروت، الطبعة: الثالثة، 1992 م، ج2، ص202، ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج8، ص 680.

[29] خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص 133-134.

[30] انظر خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص134-137.

[31] ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج9، ص 483، خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص 142، 153، 154.

[32] انظر: سوادي، عبد محمد، **الأحوال الاجتماعية والاقتصادية في بلاد الجزيرة الفراتية خلال القرن السادس الهجري**، وزارة الثقافة والإعلام، مصر، 1989 م، ص 103.

[33] التطلي، **رحلة بنيامين التطيلي، الرابي بنيامين بن الرابي يونة التطيلي النباري الإسباني اليهودي**، الناشر: المجمع الثقافي، أبو ظبي، الطبعة: الأولى، 2002 م، ص 284-285.

[34] وِل ديورَانت = ويليام جيمس ديورَانت، **قصة الحضارة**، تقديم: الدكتور محيي الدّين صَابر، ترجمة: الدكتور زكي نجيب محمُود وآخرين، الناشر: دار الجيل، بيروت – لبنان، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، النشر: 1408 هـــ - 1988 م، ج12، ص 101.

[35] جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، الناشر: دار الساقين الطبعة: الرابعة 1422هـــ/ 2001م، ج12، ص173.

[36] خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص 479.

[37] الحموي، **معجم البلدان**، ج2، ص 240.

[38] خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص 480.

[39] برصوم، أفرام، **نزهة الذهان في تاريخ دير الزعفران**، الطبعة السريانية، ماردين، 1917م، ص 1، 2، 3، 4، 12،

[40] برصوم، **نزهة الذهان**، ص34.

[41] الحموي، **معجم البلدان**، ج2، ص512.

[42] خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، مصدر سابق، ص 484

[42] انظر: برصوم، **نزهة الذهان**، ص 52- 62.

[42] انظر: برصوم، **نزهة الذهان**، ص 63-68.

[42] المصدر السابق.

[43] خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، مصدر سابق، ص 484

[44] انظر: برصوم، **نزهة الذهان**، ص 52- 62.

[45] انظر: برصوم، **نزهة الذهان**، ص 63-68.

[46] انظر: برصوم، **نزهة الذهان**، ص 68-69.

[47] انظر: خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص487.

[48] خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص 489.

[49] انظر: خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص 483.

[50] انظر: خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص 424.

[51] لم اجد ترجمة كاملة له ولا تاريخ وفاته، ذكره الدكتور عماد الدين خليل من غير وفات وعزا المصدر إلى كتاب الشرفنامة للبدليسي، و لم أجد شيئا يتعلق بالوفاة عند البدليسي في كتابه المذكور، وذكر الدكتور عماد الدين خليل أن البدليسي أورد هذه الرواية وأنه غالبا يخطيء في ضبط التواريخ والأعلام. انظر : خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، حاشية الصفحة 493.

[52] خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص 493.

[53] خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص 494.

[54] من خلال الاستقراء العام لانتشار المذهب الأشعري بين طوائف الفقهاء المختلفة يمكن القول بأنه من الصعب لأي باحث أن ينكر وجود علاقة بين الأشاعرة كمذهب كلامي وبين الشافعية كمذهب فقهي. انظر: إبراهيم الدبيو: **آراء الإمام النووي في مسائل العقيدة (مبحث العلاقة بين الشافعية والأشاعرة)** ، دار المقتبس، دمشق، الطبعة الأولى 2018م، ص 87.

[55] هو العلامة قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري، شيخ الشافعية في زمانه، تأدب على أبيه، وبرع، وتقدم، وأفتى، ووعظ في أيام مشايخه، ودرس بنظامية نيسابور نيابة، وصار من فحول المناظرين، وبلغ رتبة الإمامة، وكان صاحب فنون وكان حسن الأخلاق،

متوددا، قليل التصنع، درّس بنيسابور وبغداد ودمشق وحلب، وانتهت إليه رئاسة المذهب بدمشق وكانت له اليد الباسطة في الخلاف والتفسير والأصول والأدب، انظر في ترجمته: ابن كثير، إسماعيل بن عمر بن كثير، **البداية والنهاية**، المحقق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة: الأولى 1408، هـ - 1988 م، ج12، ص 383، الإسنوي، عبد الرحيم بن الحسن بن علي الإسنوي، **طبقات الشافعية**، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى 2002م، ج2، ص279، النعيمي، عبد القادر بن محمد الدمشقي، **الدارس في تاريخ المدارس**، المحقق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة: الأولى 1410هـ-1990م، ج1، ص136.

56 يقول المقريزي : "فجمع له الشيخ الإمام قطب الدين أبو المعالي مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري عقيدة تحوي جميع ما يحتاج إليه، فمن شدة حرصه عليها كان يعلمها صغار أولاده ويأخذها عليهم. وكان يواظب الصلاة مع الجماعة، المقريزي، أحمد بن علي بن عبد القادر، **الخطط والآثار**، المحقق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - لبنان/ بيروت، الطبعة: الأولى، 1418هـ - 1997م، ج1، ص 149.

57 المقريزي، **الخطط والآثار**، ج4، ص 192.

58 المدرسة النظامية نسبة نظام المُلك، وهو الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الوزير أبو علي نظام الملك، قوام الدين الطوسي(485هـ/1092م) كان مجلسه عامرا بالفقهاء والقراء، أمر ببناء المدارس في الأمصار ورغب في العلم كل أحد، وسمع الحديث وأملى في البلاد وحضر مجلسه الحفاظ، وكان وزير السلطان البارسلان السلجوقي عشر سنين، ثم وزر لولده ملكشاه عشرين سنة، وكان يحب الفقهاء والصوفية ويكرمهم، ويؤثرهم، بنى المدرسة النظامية ببغداد، وشرع فيها في سنة (457هـ/1064م) وانجز بناءها سنة (459هـ/ 1066م) وهناك المدرسة النظامية في دمشق، كان جُلّ اهتمامه ببناء المدارس السنية، ومن المدارس التي بناها مدرسة بنيسابور، ومدرسة بالبصرة، ومدرسة بمرو، ومدرسة بآمد ومدرسة بالموصل، انظر ترجمته والحديث عن المدار والمدرسة النظامية: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك بن عبد الله، **الوافي بالوفيات**، المحقق: أحمد الأرناؤوط وتركي مصطفى، الناشر: دار إحياء التراث – بيروت، عام النشر: 2000 من ج12، ص77، سبط ابن العجمي، أحمد بن إبراهيم بن محمد بن خليل، **كنوز الذهب في تاريخ حلب**، الناشر: دار القلم، حلب، الطبعة: الأولى، 1417هـ، ج1، ص268.

59 الصلابي، **دولة السلاجقة**، ص 357

60 صيد الخاطر، https://saaid.net/feraq/mthahb/6.htm

61 انظر مؤلفه العلمية، سعيفان، فضل، **أبو اليسر البزدوي وآراؤه في أصول الدين**، رسالة دكتوراه مخصصة للحديث عنه.

62 الصلابي، **دولة السلاجقة**، ص 30.

63 ابن الأثير، الكامل في التاريخ، مصدر سابق، ج7، ص 245.

64 الصلابي، **دولة السلاجقة**، ص 33.

65 أحمد معمور العسيري، موجز التاريخ الإسلامي من عهد آدم إلى عصرنا الحاضر،(فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية - الرياض)، الطبعة: الأولى، 1417 هـ - 1996 م، ص 227.

66 الذهبي، محمد بن أحمد، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام تح: عمر عبد السلام التدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، ط. الثانية، 1993 م، ج26، ص 257.

67 سعيفان، فضل يونس، أبو اليسر البزدوي وآراؤه في أصول الدين، أطروحة دكتوراه، جامعة طرابلس، 2018-2019، ص26-27.

68 قال عنه الذهبي:" الحسن بن الصباح الإسماعيلي، كان من كبار الزنادقة، ومن دهاة العالم، أصله من مرو، وقد أكثر التطواف في البلدان، يغوى الخلق ويضل الجهلة، وكان قوى المشاركة في الفلسفة والهندسة، كثير المكر والحيل، بعيد الغور. انظر: الذهبي، محمد بن أحمد، **ميزان الاعتدال في نقد الرجال**، تحقيق: علي محمد البجاوي، الناشر: دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1382 هـ-1963م، ج1، ص500.

69 خليل، **الإمارات الأُرتُقية**، ص 496-497.

70 انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج8، ص703.

71 انظر: ابن الأثير، **الكامل في التاريخ**، ج8، ص703.

72 الصلابي، **دولة السلاجقة**، ص588.